اهمية العربية في الممالك العثمانية (١)

كان هذا الموضوع في ذهني منذ بضع سنين ولكني صرفتني عنهُ الحوادث التي حدثت (ويؤلمنا انها حدثت) مخافةَ ان اكون من المفرقين. امَّا الآن وقد وصلنا والحمد لله الى حيث لا نخاف من تفريق ولا مروق ولا ارتداد ولا رجعى الى غير ذلك من الالقاب التي كان يُنبَذ بها المخالف للرأي المرغوب في ترويجهِ وقد لا يكون ذلك المخالف الاَّ ثرثاراً يَحْسَبُ الثرثرة فصاحةً او مقلِّداً يَحسبُ التقليدَ علماً وحكمةً

ايها السادة: كان يؤلمني اولئك الكتَّاب الذين كانوا يرفعون اصواتهم وينادون مصرِّحين أنَّ اللغةَ العربيةَ لُغةٌ ميتة. لغة مضى زمانها فاصبحت عضواً اثريًّا في جسم المجتمع تتنابهُ بسببها العِلَلُ والاوجاع من غير ان يتنفع بها بوجهٍ. نعم كنت اتألَّمُ من هؤلاء الذين كانوا يزعمون ان اللغةَ العربيةَ عِلَّةُ الضعف في كيان المملكة العثمانية وانها اي المملكة العثمانية لا تقوى الاَّ اذا أُميتت هذه اللغة الشريفة واُستُبدلت بلغة الفريق الحاكم اعني اللغة التركية. واشدُّ ما كان يؤلمني ان اولئك الكتَّاب كانوا يقلِّدون عن غير علمٍ. يرون مشابهةً ويتسرَّعون الفارق بين المتشابهين. ولو حلَّلتم افكارهم لوجدتم انهم كانوا يحبون شعبهم يُقابِل الشعب الفرنساوي مثلاً ولغتهم تقابِلُ لغتهُ ويحبون العربية كلغة جزيرة مداكسكر مثلاً. اذن فاهلها اي المتكلمون بالعربية بالنسبة اليهم كاهل جزيرة مداكسكر بالنسبة الى الفرنساويين. نعم هناك مشابهة وهذه المشابهة هي ان القوَّة او الهيئة الحاكمة منهم كما انها من الفرنساويين. ولكن هل تسوغ لهم هذه المشابهة وحدها ان يعاملوا اللغة العربية واخوانهم من المتكلمين بها كما يعامل الفرنساويون لغة اهل مداكسكر وشعب مداكسكر. وهل لغتهم بالنسبة الى العربية كاللغة الفرنساوية بالنسبة الى اللغة المداكسكرية؟ وهل عددهم في المملكة العثمانية بالنسبة الى المتكلمين بالعربية كعدد المتكلمين بالفرنساوية في البلاد الفرنساوية الى عدد المتكلمين باللغة المداكسكرية. وهل في رُقيِّهم العقلي والادبي يفضلون المتكلمين بالعربية كما يفضل المتكلمون بالفرنساوية في رُقيِّهم هذا اعني العقلي والادبي الشعب المداكسكري

هذه سؤالات عرضت لنا ولم نستطع دفعها فهل يستطيع هؤلاء الكتَّاب ان يجيبوا عليها جميعها بالايجاب. ام هم لو ارادوا ان يرجعوا الى التاريخ وما سُطِّرَ فيهِ قبل ثلاث مئة سنة او ما هو اقل من ذلك أفيستطيعون ان يروا تاريخاً لهم مسطوراً باللغة التركية؟ بأيِّ

(١) من خطبة ألقيت في معهد الفرائض ببيروت

لغة كان يكتب كتبه الافاضل منذ ثلاثمئة سنة كصاحب سفينة اوراغب وغيره من الادباء والعلماء ولا تقول المحدثين ولا اهل الفقه والتفسير

نحن لا ننكر على هؤلاء الكتّاب عثمانيتهم ولا ننكر عليهم الغيرة على الشعوب العثمانية ورغبتهم في ان تجتمع لغة كل هذه الشعوب وكتبهم الى لغة واحدة وكلمة واحدة فترجع الدولة العثمانية بسبب هذه الوحدة الى مكانتها السالفة من العزة والمنعة ونفوذ الكلمة بين سائر الدول الاوربية . نعم لا ننكر عليهم الحماس القومي ولا الغيرة الوطنية الملية ولكننا ننكر عليهم صحة القياس والاستنتاج وبالتالي صحة الرأي والسياسة الذين كانوا يروجونها في كتاباتهم . نسلم لهم انّ ثمة مشابهة بين الفرنساوي من حيث نسبتهم الى اهل جزيرة مداكسكر وبينهم من حيث نسبتهم الى المتكلمين بالعربية كما ذهبوا الى ذلك . ولكن هنالك فوارق عديدة غفلوا عنها لا تجوز لهم بوجه من الوجوه ان يقيسوا العربية على المداكسكرية ولا المداكسكريين على المتكلمين باللغة العربية

على اننا لا ننكر ان اخواننا الكرام من عقلاء الاتراك ومشيختهم الحكماء ما رضوا عن تطرف هؤلاء الكتّاب الشبان ولا يرضون عنهُ . وهم يعلمون انهُ ليس من السهل ان تستبدل اللغة العربية بلغة اخرى من لغات اهل الارض اجمع . بل يعلمون انهُ لا يُناسب عز الدولة ومجدها وحرمتها ان تستبدل اللغة العربية باللغة التركية فتفقد كل التأثير المعنوي الذي لنا في تاريخ العرب وفي الآداب العربية فانّ هذا التاريخ وهذه الآداب تجعل معنا قلوب مئات من الملايين في الصين والهند وتركستان وجزر المحيط ومعظم شمالي قارة افريقية وبعض اواسطها . كل ذلك يعرفهُ حكماء الاتراك ومشيختهم من العقلاء الذين لم يكونوا ولا يكونون قط راضين عن اولئك المتفرنسين من شبان تملوا بفرط الحمية والوطنية فكاد يؤدي بنا فرط حميتهم هذه الى ضغائن واحقاد نحن في غنى عنها

ايها السادة : لم اشعر من نفسي الاّ وقد ذهب بي هذا الاستطراد كلّ مذهب فاعذروني واتذنوا لي بالرجوع الى مساق موضوعي وهو « اهمية اللغة العربية في الممالك العثمانية » فاقول : اهميةُ كل لغة ترجعُ الى امرين الاول عدد المتكلمين ومنزلتهم في المجتمع والثاني ما فيها من الاتساع والصلاحية للاتساع في الفاظها وتراكيبها بحيث تستطيع الافصاح عن كل ما يمرُّ في الذهن من انواع المعاني واختلاف الاعتبارات

اما من حيث الامر الاوّل فاقولُ إنّ المتكلمين باللغة العربية في الممالك العثمانية غير البلاد العربية يبلغون نحواً من سبعة ملايين . ثلاثة ملايين ونيف في العراق والجزيرة

الفرنسية ومثل هذا العدد او اكثر منهُ بقليل في ولاية حلب وما يجاورها وفي البلاد السورية على العموم وهذا العدد من المتكلمين بالعربية اذا قوبل بالارمن العثمانيين كان خمسة اضعافهم تقريباً واذا قوبل باليونان والارمن معاً بلغ ضعفيهم على الاقل واذا قوبل بالاتراك سواء ان لم يزد عليهم زيادةً تبلغ ان تكون متصرفية من الدرجة الاولى او الثانية

واذا زدت على هذا العدد من المتكلمين بالعربية اخوانهم في نجد والحجاز واليمن من الذين لا يُنازَعُ في عثمانيتهم بلغ مجموعُ المتكلمين بالعربية نحواً من ستين في المئة من جميع العثمانيين على اختلاف اجناسهم والسنتهم معاً

لو لم يكن من متكلم باللغة العربية الاَّ من ذكرنا لكان من الرأي والحكمة ان يُنظَرَ الى هذه اللغة نظرةً خاصةً ولا اقول انهُ كان يجب ان تُقدَّمَ على اللغة التركية ولكني اقول انهُ كان يجب ان تعامل في ايام الدستور كما تعامل اللغة الفرنسوية في بلاد الفرنسوال التي ضُمَّتْ من عهدٍ غير بعيد الى ولايات الامبراطورية الانكليزية . وكنا يعلم لقرب العهد ما كان عاد ذه الى ضمّ هذه البلاد الى املاك التاج الانكليزي ونعلم ايضاً انَّ ضمّها كان بحق الغلب والقهر الذي لا يُنازَع فيهِ . ومع ذلك وفضلاً عمَّا بين الأُمَّتين الانكليز والفرنسوال من التفاوت في القوة والعدد والتهذيب لم يكبر على عقلاء الانكليز وكبارهم ان يجعلوا اللغة الفرنسوالية لغةً رسمية كالانكليزية في المدارس والمحاكم وفي مجلسي النواب والاعيان

كان يمكن ان اقف على ما وصلتُ اليهِ مما سمعتموهُ ولكني لا استطيع وارى نفسي تنازعني الى ذكر كثير مما ارغمتُها على كظمهِ اثناء ما مرَّ بنا في السنين الاخيرة مخافة ان يكون في ذكرهِ ضررٌ . اما الآن وقد انقشع ذلك العارض عنَّا وجعل رأي العقلاء واهل الحكمة والحنكة يعود شيئاً فشيئاً الى منزلتهِ التي ينبغي ان تكون لهُ فلا بدَّ لي من القول انَّ هناك عثمانيين غير من ذكرنا عثمانيين في الامال والعواطف . وهؤلاء العثمانيون في اميالهم وعواطفهم يجمع بيننا وبينهم جامع اللغة العربية فكما رأوا من العثمانية الحالية التفاتاً للعربية واحتراماً لها بالقول والفعل معاً لا يجرّد القول زاد ارتباطهم بنا معنوياً وآلت هذه الزيادة في الارتباط الى زيادة وجاهتنا وكرامتنا من حيث نحن امةٌ عثمانية في عيون الشعوب والممالك الغربية والعكس بالعكس . ومن هؤلاء العثمانيين اخواننا في مصر والسودان وعددهم لا ينقص عن اثنا عشر مليوناً من النفوس . ومع انهم لسلسلة من السياسات متعددة انفصلوا عنا انفصالاً حسياً سياسياً فهم لا يزالون على اشد ارتباطهم المعنوي بنا ولا يبقى هذا

الارتباط كما هو الآن بيننا وبينهم الاّ اللغة العربية والاشتراك التام بيننا وبينهم في الآداب الماضية والحالية . فان قيل انما يربطنا بهم رابط الاسلام لا اللغة قلتُ لهذا القائل اصبتَ واخطأتَ . اما انك اصبتَ في ان الرابط الاولي هو الاسلام فواضح واما خطاؤك فلانك فصلتَ الاسلام والآداب الاسلامية عن اللغة العربية والآداب العربية . من ينكر ان الارتباط بيننا وبين اخواننا في مصر والسودان هو اشدُّ بمراتٍ من الارتباط بيننا وبين اخواننا في تركستان . وكذلك الارتباط بيننا وبين مسلمي تركستان هو اشدُّ منهُ بيننا وبين المسلمين في داخلية الصين . ولماذا ذلك اذا كان الرابط هو مجرَّد الاسلام بقطع النظر عن اللغة العربية والآداب العربية . نعم انَّ من يجتهد ان يفصل الاسلام عن اللغة العربية والآداب العربية ويزعم انَّ بذلك قوَّةً للمسلمين وزيادةً في شدَّة ارتباطهم بعضهم ببعض ولاسيما بالاتراك العثمانيين . مثل هذا الرجل جاهلٌ باحوال العمران فضلاً عن انهُ جاهلٌ بالاسلام وشدَّة ارتباطهِ باللغة العربية

ومن الذين يتكلمون العربية ايضاً التونسيون والجزائريون واهل المغرب الاقصى ومَن اليهم في الواحات وجهات الصحراء الكبيرة وعددهم ايضاً لا يقلُّ فيما ارجحُ عن عدد اهل مصر والسودان ان لم يزد عليهِ . وارتباط هؤلاء بنا شديدٌ كما تعلمونهُ وكما دلت عليهِ الاحوال الاخيرة . ومع ما بيننا بحسب الظاهر وبين التونسيين والمراكشيين من البعد مع ذلك اذا خُيِّر هؤلاء بيننا وبين الفرنساويين فالمرجع عندنا انهم يختارون العثمانية الحاضرة على اهل حسن المآل ويُعرضون عن الزبقة الناصرة لا خوفاً من سوء المنقلب . على انهم لا يختارون العثمانية للتركية الاستانبولية . ولا يُعرضون عن باريس لمجرَّد كونها النصرانية انما هم يشوفون الى ما كان لهم من المجد والسؤدد فيأنفون ان يكونوا مسودين بعد ان كانوا سادةً . ولما كان مجدهم وسؤددهم القديمان مرتبطين بمصر والشام والعراقين معاقل العربية بعدَ نجد والحجاز لاجرم انهم يميلون الى العثمانية صاحبة الحرمين وصاحبة هذه البلدان لا الى العثمانية التركية او الكردية او الارمنية وبعبارةٍ اخرى العثمانية التي لغتها اللغة التركية التي تتكلَّمُ بها هذه الشعوب الثلاثة . انزع العربية والآداب العربية من شمالي افريقية (اي طرابلس وتونس والجزائر والمغرب الاقصى كلهِ) وانظر ماذا يحلُّ بالعلم من الاستكانة والخنوع . لا يزال العهد قريباً بما كان من الطرابلسيين في الحرب الايطالية الاخيرة فانهم فعلوا ما فعلوهُ انفةً من ان يُقالَ انَّ ابطال العرب ونسال الفاتحين الاولين استكانوا للسيادة الطليان ورضوا للذلَّة والصغار . نعم لا انكر ان حميتهم كانت حمية دينية ولكنَّ هذه الحمية

الدينية كانت لولا العربية والآداب العربية والتقاليد العربية لا تختلف كثيراً عن حمية المورو في جزائر الفيليبين حمية تحامي عن النفس وتدفعها الى عمل مجيد ولكنها لا قديم لها ولذلك يصعب توجيهها نحونا نحن العثمانيين

ومن الذين يتكلمون العربية كلهُ طلبة العلم الدارسين واهل الفقه المحققين الذين نقتدي بهم الامة الاسلامية وتخصهم بمزيد التبجلة والاحترام في سائر اقطار الهند والصين وممالك ايران وما اليها من بلاد خراسان وما وراء النهر وبلاد التتار في شرقي اسيا واوربا . ولا يقلُّ عدد هؤلاء الاعلام فيما اظنُّ عن مليونٍ من النفوس هم خاصَّة الناس حيث كانوا واهل العلم والوجاهة منهم . ولهذا المليون من عارفي اللغة العربية مرجع الفضل في العطف على العثمانيين والدولة العثمانية . واعتقدُ انهُ كلما زاد عددُ هؤلاء زادت مشاركة العالم الاسلامي لنا في الحاسيات وكلما قلّوا قلّت . اعرف كثيرين من هؤلاء الاعلام الافاضل معرفة شخصيَّة ولا ازال اذكر حديثاً دار بيني وبين بعضهم . قلت لهُ اتستبدلون لو خُيِّرتم لغتكم بلغةٍ من ارقى لغات اوربا قال لا لا نرضى بذلك اصلاً . قلت اتستبدلونها باللغة العربية قال نعم نعم ونحسب ان قد اصبنا اعظم سعادةٍ واعظم شرف بهذا الاستبدال . واعرف من فضلاء التتار واعلامهم مثل هذا العلامة الفاضل الموسى اليهِ وكلهم يرى رأيهُ في اللغة العربية الشريفة اي انهُ لا يتأخر لا هو ولا قومهُ ساعةً قبل ان يستبدلوا لغتهم باللغة العربية على حين انهم لا يستبدلونها بارقى اللغات الاوربية ولو زيد لهم فوقها اللاتينية واليونانية القديمة

لو كان لي من الامر شيءٌ وعندي مالٌ لانفقتُ على تعليم العربية او قل على تعزيزها في الصين والهند والتركستان مليون جنيه في السنة على الاقل واكون مع الايام رابح ادبيًّا ومادياً ولو كنت تقدمت على ازمن الذي انا فيهِ خمسين سنة وكان لي من الامر شيءٌ لكنت عززت العربية في شمالي افريقية الى اقصى غايةٍ تكون في الامكان . وارجح انهُ لو كان هذا التعزيز لكانت الحال الآن على غير ما وصلت اليهِ

ايها السادة : إنَّ لغةً يتكلمُ بها نصفُ سكان المملكة العثمانية وهي فوق ذلك لغةُ مصر والسودان وكلِّ شمالي افريقية بين شواطئ المتوسط والصحراء الكبيرة . وتعلمون ما كانت نسبة هذه البلدان الينا ولا تزال نسبةُ بعضها منا الى الآن . ثمَّ هي فوق ذلك لغةُ اكثر من مليونٍ من خيرة مئةٍ وخمسين مليوناً من المسلمين في الهند والصين والتركستان — هذه اللغة لها بل ينبغي ان يكون لها من الاهمية في المملكة العثمانية اضعاف ما كان لها لحدِّ الآن . هذه

اللغة والمفروض على كل فقيه ومفسر ومحدث من علماء الاتراك انفسهم ان يعرفها اكثر مما يعرف التركية جدير بالامة العثمانية عن آخرها تركيها قبل عربيها ان تنزلها بالمنزلة التي لها . أو ليس من الغفلة بل من الخرق في السياسة ان تقدم عليها اللغة الفرنساوية فتكون هذه رسمية دونها وهي سيدة اللغات الشرقية بل سيدة اللغات اجمع

اللغة العربية هي لغة علمائكم ايها الاخوان الاتراك لغة اخص خاصتكم من اهل العلم والدين وهي عندهم مقدمة على اللغة التركية لانه يفتقر لهم في علمهم ودينهم ما اذا قصروا دون الوقوف على اسرار اللغة التركية ودقائق ما تحتمله تراكيبها من المعاني ولا يفتقر لهم مثل هذا التقصير في اللغة العربية . واكثر من ذلك ان اللغة العربية هي لغة كرام آبائكم الاولين ومستودع علومهم وآدابهم وتخيلات شعرائهم . بل لعلمائكم الذين ولدوا في الاستانة والروم ايلي واسيا الصغرى من المؤلفات في اللغة العربية في مدى قرنين من السنين او ثلاثة ما يزيد على مؤلفات علماء العراقين والشام ونجد والحجاز في تلك المدة على ما ارجح . ولعلي لا اكون مخطئا اذا قلت ان أبلغ المؤلفات في العربية واكثرها دلالة على علم مؤلفيها بعد اعتلاء شأن الدولة العثمانية انما هي للاتراك العثمانيين ولمن قربه سلاطين هذه الدولة العظام

ومن جملة ما اذكر من اسماء هؤلاء الائمة الاعلام العلامة ابي السعود بن محمد العمادي قاضي السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد فان كتابه ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم كتاب من البلاغة وحسن البيان على ما لا يوفى من حق وصفه الا ان يقال فيه انه جمع بين الكشاف وانوار التنزيل فصاحة وبلاغة وعلما وتحقيقا وزاد عليها . وهنا اذكركم ايها السادة بصاحب الكشاف فانه العلامة جار الله الزمخشري ومن نسبتهم تعلمون نسبته فانه ابن عم الاتراك العثمانيين ان لم يكن ابن ابيهم . ومثل هذا العالم علماء كثيرون قاموا من بين الفرس والترك والتركمان والديلم والشرد . لم يمر قرن او ربع قرن لم يقم فيه عالم مؤلف في اللغة العربية منذ اوائل الدولة العباسية الى وقتنا الحاضر . وكثيرون من هؤلاء العلماء كانوا كما ألمعنا من الاتراك العثمانيين

وبالاجمال اقول ايها السادة انه مرت قرون في تاريخ الاسلام كانت فيها اللغة العربية لغة العلم والادب والدين لكل الشعوب التي ذكرناها وكانوا اشد عليها غيرة واكثر لها احتراما وتعظيما من العرب انفسهم ولعلها كانت لهذه الامم الشرقية الاسلامية بمثابة اللغة اللاتينية واليونانية معا للامم الاوربية المسيحية . الا ان كثيرين من علماء هذه الامم لا يزالون الى اليوم يؤلفون باللغة العربية ولا اقول ذلك على التخيل بل عن شاهد فانه وصلني منذ بضع

سنين كتاب « رمية الاسلاف ومحية الاخلاف » فوَّلفه العلامة شهاب الدين بن بهاء الدين بن سجعان بن عبد الكريم القراي اغوجاني وهو من علماء التتار من ولاية قزان التابعة لروسيا اوربا . وارجح ان هذا الفاضل لا يزال حيًّا يُرزَق الى الآن . فانهُ بلغ في التأليف الى آخر هذا الكتاب سنة ١٢٩٣ هجرية . وكتابهُ لا ينقص شيئًا في فصاحة الفاظهِ وبلاغة تراكيبهِ ودقَّة تعبيرهِ عن كتاب مثلهِ من تأليف احد علماء مصر او الشام او العراق . وجميعنا نعرف كتاب لقطة العجلان وغيرهُ من مؤلفات العالم الفاضل سلطان بهوبال وقد طبعت في مطبعة الجوائب في حياة مؤلفها ووقف على طبعها صاحب تلك المطبعة العلامة المرحوم احمد فارس واثنى عليها غاية الثناء . وهي خليقة بما قيل فيها . ولا يزال الى الآن في خراسان وبلخ وبخارا وما الى هذه البلدان من البلاد الاسلامية كثيرون من العلماء الاعلام الذين تفتخر اللغة بمؤلفاتهم كما كانت تفتخر بمؤلفات اسلافهم . ولا اشكُّ ايضًا انَّ ثمَّ بين الاتراك العثمانيين انفسهم اليوم من العلماء الاعلام في العربية مَن نسبتهم الى غيرهم من علماء مصر والشام لا تنقص عمَّا كان عليهِ ابو السعود في ايامهِ بالنسبة الى علماء القطرين المشار اليهما

فتكريم العربية تكريم لكل هؤلاء واحترامها احترام لهم . ولا اشكُّ انهُ اذا أُعطيت هذه اللغة الشريفة المنزلة التي ينبغي ان تكون لها والتي تستحقها في المملكة العثمانية اي ان حُسِبَت رسميةً قبل الفرنساوية ونظير التركية في مجلس المبعوثان لاتَّفقَت علماء هذه اللغة في كل البلدان التي ذكرناها على اعظام هذا العمل وعرفوا كيف يكافئون الحكومة التي اهتمَّت باخراجهِ الى حيز الوجود . وأقلُّ مكافأةٍ يستطيعها هؤلاء العلماء هي ان يوحِّدوا رأي الامة ويعزِّزوا جامعتها العثمانية تعزيزًا لم تبلغهُ في زمنٍ من ازمنتها

يحسن بي ان اقف حيث وصلتُ الآن . واما اهمية العربية من حيث الاتساع والصلاحية للاتساع في الفاظها وتراكيبها بحيث تستطيع الافصاح عن كل ما يمرُّ في الذهن من المعاني فاتركهُ لوقت آخر رفقًا لمقتضى الحال واني لآمل من كل ذي فضل من محبي هذه اللغة الشريفة ان يتجاوز عما فرط مني من الحدَّة في سبيل بيان اهمية هذه اللغة الشريفة ويعزِّز ما اتيتُ بهِ لتصل هذه اللغة الشريفة الى المنزلة التي تحقُّ لها في مجلس نوابنا العثماني والسلام

نجيب ضومط